تجليات المكان وجمالياته في شعرعثمان لوصيف

The manifestations of the place and its aesthetics in thmane loussif's poetry

د.صفية بن زينة*

تاريخ الإرسال: 2020/05/03	تاريخ القبول:2020/10/11	تاريخ النشر:2020/12/30

الملخص:

يروم هذا المقال إلى دراسة المكان، في إحدى كتابات الشاعر(عثمان لوصيف) وفق استنطاق دلالة البنية اللغوية وهيمنة الجغرافيا على النص الشعري؛ فالمكان الذي شهد لعثمان لوصيف بالحضور فيه، بما يحمله من غنى وتناغم واختلاف في معطياته، وتنوع في بيئاته الجغرافية. إذ أصبحت التجارب الشعرية لدى الشعراء تتأسس على وعي نقدي، وحس جمالي بناء على الخلفية المعرفية التي يملكها كل شاعر، فشاعرنا استفاد من التجارب الشعرية المكانية العربية والغربية؛ ليضفي على شعره جمالية لا محدودة. من خلال اتخاذه المكان موضوعا شعريا أساسيا في نصوصه الشعرية.

الكلمات المفتاحية: المقال، دراسة، لوصيف، المكان، البنية اللغوية.

Abstract:

This article aims to study the place, in one of the writings of the poet (Othman loussif) according to the interrogation of the significance of the linguistic structure and the dominance of geography over the poetic text. As poetic experiences among poets became based on critical awareness, and aesthetic sense based on the knowledge background owned by each poet, our poet benefited from Arab and Western spatial poetry experiences, to give his poetry an unlimited aesthetic. Through his taking the place a major poetic topic in his poetic texts.

Key words*: article, study,loussif , the place, linguistic structure.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: صفية بن زينة و البريد الإلكتروني: safou_nour@hotmail.com

* جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف البريد الإلكتروني: safou_nour@hotmail.com

مقدمة :

أولى دارسو الأدب عناية بالغة الأهمية للمكان في العمل الأدبي، متفقين على دلالاته الكثيرة وجمالياته المتنوعة، وأجمعوا على أن للمكان عميق الأثر في الحياة البشرية، إذ ما من حركة إلا وهي مقترنة به، وما من فعل إلا وهو مستوح لبعض دوافعه منه، وهو أعمق وأكبر، وأهم من أن ينحصر في ما يمثله من ظرف أو وعاء، وأن يقتصر فيه على البين الناتئ من مستوياته، لأن كل مناحي الحياة ومستوياتها، وقطاعاتها، بل وكل مناحي النفس أيضا تشهد على حضوره الكثيف، وتعدد مظاهره، وتفصح عن أثره، وتدفع إلى الإقرار بأنه جزء لا يتجزأ من كل الموجودات وكل وجوه حركتها وسلوكها ولعله ما من قرين للتجربة البشرية مثله، فهو عمادها ومطرحها، وهو مغذيها، وهو مصبها ومنطلقها، وهو ترجمتها أيضا، إذ أصبح "المكان هو الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر تصوراتها شعورها، وذلك عبر عملية التجادل بينه وبين الذات"[1].

كما أن الارتباط بالمكان ومحاولة استنطاق دلالاته النفسية والتاريخية والحضارية يمنح الشاعر تلك الرؤية العميقة، في تصويره ونقل مشاعره وأحاسيسه.

فبإمكان الشاعر أن يجسد المكان بواسطة الصورة، واللغة، والإيقاع، من دون أحداث تجري، ولا شخوص تتحرك بل من خلال رموز تحتضر أحداثا، وأزمانا، وأساطير، وأفكارا، وبالتالي تكون شعرية المكان رمزية دلالية، ومما يميز الشعراء عن بعضهم البعض هو ذلك الجانب الفني أو الجمالي الذي يتخذ خصائص معينة من حيث جمالية الصورة وسلامة اللغة وسلاسة الأسلوب وجودة الفكرة وسعة الخيال، فتشكل أساسا ينماز به الشاعر عن غيره من الشعراء. وهي فنيات يستعملها الشاعر لتقريب النص، والتأثير على القارئ بواسطة اللغة التي تبرز قدرة الشاعر في كيفية تعامله معها، ويقوم المتلقي بالكشف عن هذه الجماليات التي يحتويها النص، ومن التقنيات المعتمدة في تجسيد المكان الشعري أنه يعيد تشكيل صورته، ويمنحها بريقا ويزيدها لمعانا وتأثيرا قويا في نفسية الشاعر.

ويلعب المكان دورا مهما في حياة الفرد، إذ يرتبط به في كل زمان، وهو بمثابة المرآة العاكسة لتجارب الإنسان في حياته، فقد مّثل المكان عنصرا أساسيا من عناصر العمل

الأدبي، حيث يسعى الشعراء والأدباء إلى التفنن في وصفه، ومنهم شاعرنا الجزائري **عثمان لوصيف** محور دراستنا.

فكيف جسّد عثمان لوصيف المكان في شعره؟، وما الآليات التي وظّفها لتحقيق ذلك؟، وما الدلالات الرمزية التي أنبأ عنها المكان في شعره؟.

هي إشكاليات سنبحث عن إجابات لها، من خلال تحليل لنماذج من شعر عثمان لوصيف، وسنوظّف المنهج الوصفي، من أجل الكشف عن جمالية المكان في شعر لوصيف، على أن لا نغفل الإحصاء الذي سيفيدنا لا محالة في الكشف عن الأمكنة التي وظّفها لوصيف في شعره، مع أنّ الاستقراء للنماذج المطبّق عليها، سيمكننا من حصرها.

أمّا عن الهدف من هذه الدراسة فهو إبراز الملكة الشعرية المتميّزة لعثمان لوصيف، ومدى استخدامه لتقنيات متعددة – والمكان إحداها – من أجل إضفاء جمالية على شعره لا حدود لها، تستوقف المتلقي كلّ حين.

1.أهمية المكان في العمل الفني:

تتلخص أهمية المكان في العمل الفني (شعريا كان أو نثريا) في كيفية تصوير العمل الفني للمكان المقصود، فهو يهدف إلى إعادة خلق الواقع وتشكيله من جديد " فالمكان الشعري يعيد خلق صورة مكان الألفة ويزيد من سطوعها وتعميقها حد انفصال الشاعر نفسه من مكان القصيدة الشعرية"[2] .

ولكي يقف القارئ في العمل الفني على أثر المكان بوضوح فلا بد من إشغال العمليات الحسية والإدراكية لديه، وذلك بالخروج من المستوى السطحي وتجاوزه نحو المستوى العميق وهذا ما يؤكده عبد القادر الرباعي في حديثه عن التشكيل المكاني قائلا:" إن التشكيل المكاني الشعري قد منح حواسنا القدرة على الإدراك الحسي الذي تجاوزنا به سطوح المواد المتجمعة إلى الأعماق البعيدة المفتوحة على اللامحدود من الأمكنة"[3]. وعليه ندرك بأن القيمة الأساسية للمكان الشعري، تتموضع في حيوية المكان، الذي أصبح ركيزة أساسية في بناء العمل الفني " حيث يؤسس المكان الشعري جماعيا على وفق الطاقة الرمزية لحيوية المكان"[4] ، فهو بمثابة العمود الفقري وعنصر مهم لنجاح العمل الأدبي كما يؤكد عليه باشلار من خلال مقولته " فالعمل الأدبي حين يفقد المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته"[5] . وبحسب رأيه فإن العمل الأدبي مرهون بإخضاعه لخاصية

المكانية، وفقدانها يُفقد العمل الأدبي خصوصيته التي ينتمي إليها وأصالته وعنصر من عناصر نجاحه، مما يبين الأهمية القصوى التي ينبني عليها المكان كونه ضروريا في العمل الأدبي لأن " المكان عندنا شأنه شأن أي عنصر من عناصر البناء الفني، يتجدد عند الممارسة الواعية للفنان، ليس بناء خارجيا مرئيا، ولا حيزا محدد المساحة، ولا تركيبا من غرف وأسيجة ونوافذ، بل هو كيان من الفعل المغير والمحتوي على تاريخ ما"[6].

ومما لا شك فيه أن المكان من أهم العناصر التي تشكل جمال النص، إذ يبين تعامل الشاعر معه وجوانب رؤيته له، والأهداف المرجوة منه، وما ارتباط الشاعر العربي بالمكان إلا لعلاقة روحية ونفسية يشده الحنين، فيتغنّى به في شعره.

وتصوير المكان ليس بالأمر الجديد المبتدع، وإنما تقليد متبع منذ القدم وما المقدمة الطللية إلا مظهر من مظاهره، فالاهتمام بالمكان يضيف بعدا جماليا للنص الشعري، ولاسيما الجزائري منه، حيث نجد عددا من الشعراء الجزائريين يوظفون الأمكنة بمختلف أبعادها وأنواعها، مثل عثمان لوصيف الذي اهتم بالجوانب الجمالية والفنية في نصوصه الشعرية، على غرار ما كان سائدا عند شعراء جيل الثورة الذين اهتموا بالجانب الفكري والنضالي أكثر من عنايتهم بالجوانب الجمالية.

ولقد تناولت المعاجم العربية مصطلح الجمال والجمالية؛ فقد جاء في " لسان العرب " لابن منظور أن " الجمال : مصدر الجميل، والفعل جَمُلَ وقوله عز وجل ": ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون " أي بهاء وحسن، والحسن يكون في الفعل والخلق وقد جملَ الرجل بالضم جمالا فهو جميل، والجُمالُ بالضم والتشديد أجمل من الجميل، وجمله أي زينه، والتجمل تكلف الجميل . جمّل الله عليك تجميلا إذا دعوت له أن يجعله الله جميلا حسنا . وامرأة جملاء وجميلة أي مليحة، قال ابن الأثير:والجمال يقع على المعاني ومنه الحديث ": إن الله جميل يحب الجمال"، أي حسن الأفعال كامل الأوصاف. "[7]

ويعني الجمال الأدبي تلك " الخصائص الأسلوبية والبلاغة جزء منها التي تعطي النص ماهيته الفنية، ومن ثم تجعله قادرا على رسم أبعاد التجربة لتغدو تجربة بظلال يضيفها بعد أن يبلغ ساحتها انفعالا وإحساسا فالجمال بعض من تكوين العمل الفني لا ينفصل عنه تشكيلا، فمع ومضات التجربة يبرز لونها وقوامها الأسلوبي، والشاعر أو الكاتب لا ينظر مباشرة إلى المتلقي، وإنما يتواصل هذا المتلقي مع النص لأن التجربة عرفت اكتمالا

ونضوجا "[8]، فقبول النص الأدبي من طرف المتلقي يشترط توفر عدد من المقاييس الجمالية المتعارف عليها، مستعينا بذوقه الحسي وذكائه وخبراته وتجاربه، بغرض تحقيق المتعة .

وتعدّ اللغة المترجم الفعّال للجمال في النص الأدبي، لما تقوم به من وظائف، والتي حدّدها منذر عياشي في ست[9]:

الوظيفة الأولى : و تتجلى في أنها تعطي للأشياء أسماءها و دلالاتها.

الوظيفة الثانية : وتتجلى في رسم موقف المتكلم من الأشياء التي يتكلم عنها...

الوظيفة الثالثة : وتتجلى في قدرة اللغة على خلق الأشياء التي لم تكن...

الوظيفة الرابعة : وتتجلى في إعطاء الأشياء معانيها ومعاني إضافية إلى معانيها...

الوظيفة الخامسة : وتتجلى في قدرة اللغة على إعطاء المعاني معاني ليست من مسميات أشيائها.

الوظيفة السادسة : تتجلى في رسم موقف إنساني يدخل في دائرة معرفة الإنسان بنفسه ولكن اللغة تجعله خلقا آخر ليخبر به عن مكنونه في صورة جمالية.

إذ تشكّل اللغة مع الفكرة التي تعبر عنها من خلال الأداء والاستعمال وفق سياق معين عناصر يهتدي من خلالها القارئ إلى مواطن الجمال في النص الأدبي. مع التنويه إلى أن القيمة الجمالية للنص تختلف من قارئ إلى آخر، نتيجة اختلاف الميول، والرغبات، ودرجة الإثارة.

2. المكان في شعر عثمان لوصيف:

وظّف عثمان لوصيف عنصر المكان بالذكر الجغرافي أو باستخدام رموز وأقنعة شعرية، في معظم الأحيان، محاولا إبراز العناصر الجمالية في النصوص الشعرية، وجعل المكان منطلقا أساسيا لإبداعاته مع الإشارة أن القيمة الجمالية للنص تختلف من قارئ إلى آخر، نتيجة اختلاف الميول، ودرجة الإثارة.

ولأن هناك ثلاث طرق للتعامل مع المكان: " الطريقة الإلصاقية :ذكر أسماء الأمكنة والطريقة السياحية: التعامل الخارجي مع مظهر المكان، والطريقة النقدية: الانصهار في دم النص وإعطائه صفات جديدة"[10]. فلا بدّ على الناقد أو الباحث عن جماليات النص

الشعري أن يكشف طريقة توظيف الشاعر للمكان في النص الشعري، وكيفية التعامل معه داخل النص، بوعي فني خاص.

طغى المكان على أفكار العديد من الشعراء الجزائريين، ومارس سلطته عليهم نتيجة تعلّقهم بأمكنة معينة، ارتبطوا بها مهنيا أو لأنها تمثل مسقط رأسهم والبيئة التي اعتادوا عليها...، غير أن المكان عند الشاعر **عثمان لوصيف**، هو أشمل من هذه الأسباب كلها، لأن دراسته لم تعد "قاصرة على المكان الطبيعي، أو على الأركان المحدودة بحدود معينة، أو على جنس أدبي معين؛ لأن المكان اتسعت تشكيلاته الفنية والدلالية والميتافيزيقية، الممثلة في العناصر الكونية، وذلك في معظم الأجناس الأدبية .كما أن المكانية الأدبية جزء جوهري من أجزاء الصورة الأدبية"[11]، إضافة إلى أن "المكان الشعري لا يعتمد على اللغة وحدها، وإنما يحكمه الخيال الذي يشكل المكان بواسطة اللغة على نحو يتجاوز قشرة الواقع إلى ما قد يتناقض مع هذا الواقع"[12]، حيث يرتبط بتجربته الشعورية التي تجعله يذكر هذا المكان ويتفاعل معه روحيا ونفسيا، في قالب شعري يتسلل إلى أعماق القارئ .

وقد عُرِف عن عثمان لوصيف تناوله للمكان في شكله المتميز، وحضوره القوي بدا ظاهرا من خلال عنوان للديوان كـ (غرداية) مثلا والتي جعلها رمزا لوطنه الجزائر، أو بعض عناوين قصائده الشعرية كفلسطين، النيل، باتنة، سطيف، ورقلة، طولقة، الأغواط، الجلفة ، تيزي وزو، بجاية، وهران، الأوراسية، وهي أمكنة محددة، أما البحر، الجبال،الشوارع، المعبد، الممرات، الغاب، المياه، فهي أماكن غير محددة، والتي حاول تجسيدها باستعماله المتقن للغة من مجرد مدينة إلى وطن بأكمله. فقد انتقل من خلال المكان إلى مختلف مناطق الوطن بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، فلم يقتصر على منطقة دون غيرها ولم يتحيز لجهة معينة ليعكس انتماءه وهويته أنه جزائري، وليس بإمكان حدود الولايات أن تفرق بين ابن الشمال وابن الجنوب أو ابن الشرق وابن الغرب، جميعهم أبناء الجزائر.

فقد تنوعت النصوص الشعرية بتنوع المدن داخل الوطن" وهذا لا يتناقض مع عالمية الفضاء المفتوح، وإنما يتناقض مع التوحيد القسري الذي يقتل نكهة أمكنة البنى الصغرى ويلغيها أحيانا، إن نكهة الأمكنة وتعدديتها وتنوعها عبر مجموعات متحدة هي التي

تضفي على وحدة العالم طابع الفني والثقافي"[13] ، اعتبار الوطن هو انتماء الشخص وهويته، وليس خريطة جغرافية فحسب.

والملاحظ على كتابات الشاعر عثمان لوصيف أن مدينة باتنة طغت على الأمكنة الأخرى، وكان لها الحظ الأوفر من القصائد، فـ "المدينة مكان أساس في تجربة الإنسان، وعنصر تكويني شمولي، تجسد رؤية الشاعر فنياً وتاريخياً، إلى ذاته الكلية في العالم، ويحيل بما يكتنزه من أبعاد نفسية واجتماعية وثقافية وأيديولوجية، على مختلف الأمكنة والقضايا الأخرى"[14]، إذ خصّ مدينة باتنة بأربعة نصوص؛ النص الأول بعنوان (باتنة) من شعر التفعيلة في ديوان شبق الياسمين- ص 109 ، و الثاني بعنوان (باتنة) نص عمودي في ديوان الإرهاصات ص32 ، أما النصان الآخران فالأول بعنوان شوارع باتنة ص 55 ،و الثاني بعنوان الممرات ص 59 من ديوان الإرهاصات. مما يعكس مدى تعلق الشاعر بها نفسيا لأنها تمثل الملجأ الذي يقصده ليرتاح فيه، وتاريخيا فهي المكان الذي يلجأ إليه ويرتاح فيه ، يقول الشاعر:

ها أنا جئتكِ صبا ظامئًا أحملُ الشمسَ وحبي والزهَرْ
في فمي أغرودة لحّنها طيرُكِ الشادي وغنَّاها الشجرْ
فاحضنيني إنني محترقٌ وامسحي عن جبهتي مِلح السفرْ[15] .

وما هو ملاحظ في شعر عثمان لوصيف من خلال تصويره للمكان هو محاولة تجسيده في صورة امرأة؛ فبأسلوبه الخاص ولغته المتميزة تمكن من تحويل المكان في شكل أنثى،و هو أسلوب تعوّد عليه العديد من الشعراء كما هو الحال عند الشاعر نزار قباني.

كما نجد الشاعر في تغنيه بالمكان يذكر صفات عديدة ومتتالية كـ: الحورية، اللؤلؤة، الدليلة، الطيبة، السلسبيل الرقراق، واحة العشاق على مدينة الأغواط مثلا، كما يرى في ورقلة تلك الزهرة ، والنخلة ، والينابيع ، والغلال . أما مدينة سطيف فهي الغرام، والعروس، لتكون وهران سلة من نجوم، أيقونة، سنونة، عنبرة، أسطورة المحبة، البريئة، النقية، البهية، الحبيبة، مرجانة، مسكية الطل، سوسنة، سرير القرنفل، نافورة المسك، ترنيمة الليل، سقسقة الشمس، الهوى، سجادة الخز، مروحة السرخس، دندنة الله، رفيف الجفون ، عرافة البحر، هسهسة النهد، تغتغة الخصر، نعمة الماء، خيمة.

كما حظيت مدينة غرداية هي الأخرى بجملة من الصفات، فهي طفلة قمرية، عملاقة، الطلعة الكوكبية، الشمخة العربية، الغرام الدفين، فردوسي المتلألئ، ملهمتي، معذبتي، حورية، فلّة، أغنية من مرجان، قمر يتألق، فلقة رمانة، الضياء البريئ، السلام الإلهي،بدء البدايات.

وقد خصّ الشاعر عثمان لوصيف مدينة الجلفة بصفات كلها أنوثة كـ: رشة خضراء، عروس، جسم طفولي، عذراء، بنت الكرام، نجمة، لؤلؤة، هيفاء، فتنة، بنت الندى،البدوية، أستاذة الحب، معبودتي. لتكون مدينة تيزي وزو في نظر الشاعر؛ حورية، عروس النجوم، فيروز المساء، زيزفون، ياقوتة، تاريخ معجزة، سلسبيل الله، زيتونة، نور، السر، الكتر، نهر من عسل، غصن بلوري، آنية من خزف، وشي، سجاجيد، زهرة خوخ، عروس.

وكل هذا يعكس مكانة المدينة وأهميتها في قلب الشاعر، فكلما كانت القصيدة عنده طويلة كانت الصفات المنسوبة للمدينة كثيرة. لأنّ المكان هو منطلق الشاعر، ومنتهاه، في شكل دائري ولولبي، تتفرع عنه بعض التيمات، لكنها تتداخل جميعا لتشكيل النص الشعري المكاني، فـ" العلاقة بين الشعر والمكان علاقة عميقة الجذور، متشعبة الأبعاد، ومن خلالها قد يصب الشاعر على مكان ما طابعا خاصا، فيحوله من مسكن خرب إلى طلل مثير، ومن حجر أصم، إلى شاهد على لحظات مجد أو وجد، وقد تكتسب بعض الأماكن شاعرية تكاد تلازمها؛ كالقمر والبحيرة والغابة وغيرها ... من الأماكن التي اشتهرت في الشعر العربي، ألفاظا تحمل من الدلالات الشعرية أضعاف ما تحمل من الدلالات الجغرافية"[16].

لم يقتصر الشاعر عثمان لوصيف على المدن الجزائرية فحسب، وإنما بدا واضحا انتماؤه العربي والديني بشكل لافت للنظر، مبينا رغبته الملحة في عودة القدس للأمة العربية والإسلامية ،لأن القدس رمز للانتماء، رمز للتاريخ الحافل بالأمجاد، وعنوان الأمة الإسلامية، فيقول:

يا قدسُيا غراءُ يا نغمًا في زحمةِ التاريخِ ينكسرُ
أنا قادم و النارُ في شفتي و الكونُ في الأعماقِ يختمرُ
لأتم في الغمرات ملحمتي حتى يعودَ ربيعنا النظرُ
فلنحتشدْ للمعجزاتِ إذنْ وليبدأ الإعصارُ و المطرُ[17]

كما خصّ الشاعر مدينة بجملة من الصفات فهي: بروج التنزيل، وصهوة المعراج، ومنبع الهدى والقداسة، وصلاة العشاق، وزهرة الدموع...

يقول:

يا بروجَ التنزيلِ يا صهوةَ المعراجِ يا منبعَ الهدى و القداسةْ
يا صلاةَ العُشّاقِ في كلّ دربٍ يا غرامًا فيه انغمسنا انغماسةْ
أنتِ يا زهرةَ الدموعِ الهوامى يا حنينًا قد كمّموا أنفا سه
هو ذا الجرحُ صارخٌ يشتهي عانقيه ودغدغي إحساسه
وأركبي الريحَ و العبابَ وخوضي غسقَ الموتِ وأنفضي أرما سه[18]

ومثلما اهتم الشاعر بالقدس كان اهتمامه أيضا بمصر، ونهر النيل الذي جعله أيقونة من فضة، فحوّل الحروف إلى لوحة فنية تعكس طبيعته الخلابة وتروي تاريخ النيل العريق فيقول:

النيلُ في النهارْ
أو تحت ندى السحرْ
و النيلُ في الغروبْ
أو تحت سنى القمرْ
أيقونةٌ
من فضةٍ
وأرجوانٌ يستعرْ
.....
النيلُ في كل العُصُرْ
كان ولم يزل هنا
يزخرُ بالقواربِ السكرى
التي ترقصُ في الموج،
وتنتشرْ[19]

والملاحظ أن الشاعر يسرد تاريخ النيل بطريقة شعرية للمكان، لأن " شأنه شأن أي عنصر من عناصر البناء الفني، يتجدد عبر الممارسة الواعية للفنان، فهو ليس بناء

خارجيا مرئيا ولا حيزا محدد المساحة ولا تركيبا من غرف وأسيجة ونوافذ، بل هو كيان من الفعل المغير والمحتوي على تاريخ ما، والمضخمة أبعاده بتواريخ الضوء والظلمة، ويحتاج مثل هذا المكان إلى حيز مادي يتوضح عبره، و ينمو فيه وإلا أصبحت كل البيوت أمكنة صالحة للفعل. . .فالمكان في الفن اختيار، والاختيار لغة ومعنى و فكرة و مقصد"[20].

ونجد الشاعر عثمان لوصيف نظم قصيدة في مدينة ورقلة، تنبض بالدلالات النفسية والاجتماعية، فهي تعكس البيئة الاجتماعية له إلى حد ما كونها تشترك مع الطولقة مسقط رأسه في الطابع الصحراوي وغيرها من نقاط التقاطع. فيقول:

ورقلة...
زهرةٌ في الرّمالْ
ورقلةُ...
قُبْلة في الخيالْ
ورقلة نخلةٌ وظلالْ
بالندى مثقلهْ
و ينابيع دفاقة
و غلالْ
و أنا عاشقٌ
أتقدم في لوعةٍ و ابتهالْ
أتقدمُ مشتعلاً..
فاحضنيني
ولا تنكريني
ظلّليني بأهدابك المسبله
ظلّليني"[21]

فالقصيدة تشع حيوية وحركة، تظهر من خلال اللغة التي استخدمها الشاعر لتلخص النص الشعري في صورة مركزة، استخدم فيها الأفعال والصيغ الحركية؛ ليبرز التجدد والاستمرار بداخله (ظلليني، لا تنكريني، احضنيني، أتقدم ...)، فهو يحاول أن يحتضن المكان حتى يبرز حنينه إليه ومدى تعلقه به.

فورقلة بالنسبة للشاعر هي القبلة، والخيال، والعشق، والابتهال، واللوعة، والحضن، والأهداب مسبلة.

ولما كان عثمان لوصيف ابن البيئة الصحراوية جغرافيا، فإن الأغواط هي الأخرى كان لها نصيب من كتابات الشاعر، يقول :

أغواطُ يا أغواطُ
يا واحةَ العشاقِ
يا سلسلاً رقراقْ
هاأنذا أتم فيك رحلتي
و ها أنا أكملُ فيك آيْ
و أختمُ فيكِ آخر الأشواطْ[22]

فتكرار لفظة الأغواط ووصفها بواحة العشاق، ومكان نهاية رحلته، كبديل لمدينته، قصدها الشاعر ليُكمل بها آياته الشعرية، وبذلك تحول المكان من مجرد حيز عادي إلى مكان للإلهام والكتابة. هذا الانتقال من مكان جغرافي إلى آخر، يفرض انتقالا نصيا وإيقاعيا، ليُظهِر المغايرة الروحية والنفسية، فالشاعر له منظاره الخاص للمكان الذي يكتب عنه، ويحاول أن ينقله للمتلقي، الذي تكتمل به المقصدية، لأن" عالم القصيدة الدلالي لا يصنعه الشاعر المبدع بمفرده، وإنما يشاركه في ذلك المتلقي بخلفيته المعرفية، وهو ما يبعث على القول أن القراءات الجمالية للنص تظل مفتوحة على الدوام، تتقدم للبحث عن بُنى متجانسة وشفرات تحتية لتحقق المقصدية المزدوجة"[23]، فالشاعر يكتب ويحاول بعده المتلقي الوقوف عند الدلالة النفسية والاجتماعية التي يكتشفها من خلال القراءة المتكررة.

ويعدّ عثمان لوصيف عبقريا في التعامل مع الأمكنة سواء من الناحية التاريخية أو الجغرافية ومدى إتقانه لاستعمال اللغة قصد الوصول بالقارئ إلى الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر وما يثيره المكان من عواطف، رغم معرفة الشاعر بأن المكان محايد، لأن " المكان مهم بدا محايدا يثير قدرا من المشاعر في نفس المتعامل معه، فيكتسب منذ رؤيته بعدا نفسيا يختلف من مكان لآخر "[24]، فمهما تعددت الأمكنة في الجزائر، غير أننا نجد أنفسنا نعيش اللحظة مع الشاعر بكل تقاسيمها النفسية والاجتماعية، وهذا يعود لبراعته

في حسن التعامل مع توظيف المكان الشعري فكل منطقة ولها ما يميزها في حياة الشاعر، على الرغم من حبّه لجميع المناطق الجزائرية شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، إذ نجده يقول عن وهران:

كم أحبّكِ وهرانُ
كم أتحرقُ للموتِ بين يديكْ
و ماذا يَهُمّ إذا قيل عني جُننت
و ماذا يهم إذا قيل عني كفرت
أحبّك.. آه.. أحبّك
أنتِ سريرُ القُرنفل بللّه الضوءُ
فيروزةُ الليلِ ذرذَرها النجمُ فوق المدينةْ
نافورةُ المسكِ رقرقها الفجر بين الصنوبرْ
سقسقةُ الشمسِ في شرفاتِ البيوتْ
أنتِ زمجرةُ البحرِ في صَدَفِ البحر
أنتِ الهَوى و المُدامْ
أنتِ الغَوى و الغرامْ[25]

فتعلّق الشاعر عثمان لوصيف بوهران وحبه لها يدل على مدى تمسكه بها، فقد وصفها بسرير القرنفل، وفيروزة الليل، ونافورة المسك، وسقسقة الشمس، وزمجرة البحر، فوهران تمثل الهوى والغوى والغرام وكل ما هو جميل في حياة الشاعر.

ظلّ الشاعر عثمان لوصيف يكشف لنا عن مكنوناته النفسية، دون أن يصرح بذلك، كما فعل مع البحر والرمل والجبل والسماء. هي أماكن اتسمت بالشساعة والقوة الكامنة في الأعماق، فاتخذ منها شخصية مدركة تعي ما يقوله.

أينَ مِني نجومُك الخضراءُ
والنواقيسُ
و المدى
يا سماءْ
أينَ مِني رذاذُك البكرُ يُهْمِي

بينَ عينيّ
حين يأتي المساءْ ؟[26]

كما لجأ الشاعر عثمان لوصيف إلى البحر الذي يعد كاتم الأسرار، وملوحته التي تميزه تمتص كل طاقة سلبية حين التأمل فيه، حيث يلقي الشاعر بهمومه وكل ما يضايقه. يقول:

واقفٌ عند الشواطئْ
في خشوعٍ و سكينهْ
أبتني فيها مرافئْ
و شراعًا و سفينهْ
واقفٌ ألهو بدمعِي
إذْ جَرَى من مقلتيّا
ها أنا قد ساقني الوجدُ إليكِ
جئتُ لما ضاقتِ الأرضُ عليا
آوِني أيّها البحرُ لديكْ[27] !

وقد يكون البحر دليلا على آلام الشاعر، وتيهه وضياعه من خلال قوله:

بحر من لهب سيّال يضيع في طلاسمك
ويغرق.. يغرق فيك
بحر يبحث عن أمواجه ولججه
في شعابك وأوديتك
يتحسس شواطئه المرجانية
في سواحلك الهاربة أبدا نحو المجهول
يسأل عن أصدافه وأشيائه الأخرى
بحر الوجع والرحيل الأبدي
بحرك أنتِ[28]

كما لجأ الشاعر عثمان لوصيف إلى توظيف الرمال؛ للدلالة على ما يعانيه من وحدة وأزمة نفسية، يقول:

رمال تتهافت
رمال تتقاذفني ولا أثار لخطواتك
أعدو وحيدا في أوقيانوس الفيافي
وحيدا.. والسوافي السوافي
وتنثال علي رمالك المهاجرة
نحو شواطئي
كيف لي أن أطوي هذه الرمال
التي تتناسل بيني وبينك؟
كيف لي أن أتحد بك
أمزج رمالي برمالك؟
يا جزيرة الرمل الذهب[29]

لم يقتصر الشاعر عثمان لوصيف في شعره على مخاطبة السماء والبحر والرمل فحسب، وإنما تعدى ذلك إلى مناجاته للجبل، متمنيا نفسه بأن يكون مثله كرمز للقوة والصمود والشموخ ليحقق أمانيه، مع علمه بأن ذلك ضرب من المستحيل، يقول:

جبلٌ . . ليتني جبلٌ من حجر
تعصفُ الريحُ لكنّها تحت أقدامه تنكسرْ
ليتني عاصفٌ أو مطرْ
ليتني . . ليتني كيمياءْ
تَتَسَلقُ نارَ السماءْ
ثم تهبط كالصاعقةْ
في رُفاتِ البشرْ
جبل . . ليتني جبلٌ من حجرْ[30]

فالشاعر عثمان لوصيف يسعى إلى تحقيق ذاته، ليتمكن من التغيير عن طريق تقمصه العاصفة والمطر و الكيمياء ليهبط في رفات البشر .

نلاحظ أن الشاعر عثمان لوصيف لما لجأ إلى توظيف العناصر المكانية السابقة (السماء ،البحر، الرمال، الجبل) لما تحمله من دلالات عن القوة والنقاء والوحدة... وهروبا من واقع مرير تشحنه الكراهية.

وقد تمكن بأسلوبه المتميز أن يلخص تلك الأمكنة ويوظفها في صور فنية تشع جمالية، حيث ترجم تلك الشعرية المكانية لغة، لأن " المكان في الشعر إن هو إلا المكان كموضوع تضاف إليه الذات بكل محتوياته، و بذا نستطيع الجزم، أنه لا وجود في الشعر للمكان الموضوعي، لأنه إن هو إلا مكان منظور إليه بعين الذات، مدرك إدراكا كليا ومعقدا في الآن نفسه، موحدا بها أو منفصلا عنها"[31]، و قد كان الشاعر عثمان لوصيف من أبرز الشعراء الجزائريين الذين ترجموا المكان شعريا.

ولما كانت مدينة بسكرة عموما والطولقة خصوصا هي مسقط الشاعر عثمان لوصيف، والبيئة الاجتماعية التي نشأ فيها " فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة "[32]، فقد كان لها الحظ الأوفر والنصيب الأكبر في ديوانه "لؤلؤة" ، حيث وردت في ثلاثة نصوص شعرية، وخص واحدا منها بعنوان طولقة، فيقول:

مقبره
و زواحف تسحب أكفانه
و تدب إلى المقبرة
و أنا المتوحد بالنار
و الجلنار
تجرعت من سمها الوثني
و لكنني الآن
ألعن صحراءها المقفره
مقبره
و زواحف تسحب أكفانها
و تدب إلى المقبره[33]!

أما النصان الآخران فعنونهما بـ: يا سمينة "، و"المشنقة"،ويقول في قصيدته ياسمينة:

طولقة ترحل بالعاشقين
مجنونة
تعانق الياسمين
نخيلها ينسى عراجينه
و زميلها
يبكي
على الطاعنين
و الزهرة البيضاء
ما ودعت
قلبا يفيض بالأسى والأنين
طارت بها الريح
فلا نفحة
تحي بها
حشاشة الميتين[34]

وفي حديثة دائما عن مكان ولادته (الطولقة)؛ نجد ذلك الرباط العميق بينه وبين المكان الذي يدرك جميع معطياته، ويضفي عليها صوراً جمالية؛ فالشاعر " لا يستطيع أن يبرح المكان، والمكان يحتويه في حياته ومماته، فهو جزء منه لا يختلف عنه في شيء، بل يحمل من سابقيه الذين رحلوا بقية يقف عليها في كل طلل يخاطبها وتخاطبه"[35]، يقول في قصيدته المشنقة :

طولقة!
طولقه!
حين غنيت للحب
أنكرني الأهل و الأصدقاء
و قال لي أبي هذه زندقة

و أنا صاعد في التراويح
نحوك أيتها المرأة
المشنقة
نحو عيني
إن دمي يتدفق أدعية
و يدي زنبقه
آه يا ربتي
في جهنم أو في الندى!
آه طولقه!
آه طولقه[36]

نجد الشاعر حينما يكرر لفظة طولقة، فهو "يكرر ألفاظاً بعينها، قد تكون أسماء أو أماكن أو ما شابه ذلك، لدلالة نفسية شعورية، يكون التكرار بؤرة تلك الدلالة النفسية الشعورية، أو قد يكون مركز ثقلها"[37]، وهذا الكم من النصوص الشعرية التي تناولت مكان الطولقة، له دلالاته النفسية التي تفسر مدى تعلق الشاعر عثمان لوصيف وارتباطه الحميمي بمكان ولادته ومحيطه الاجتماعي. ومهما حاول الإنسان "الابتعاد عن المكان فهو مغروس فيه، "متمكن" في أعماقه"[38]، يتأثر به ويؤثر فيه وينظمه ويتكيف معه"[39]، فالمكان يستمد شعريته عندما يصبح " امتدادا للقيم الروحية التي نعيشها ونحياها، ويصبح المكان والإنسان في الحياة الدنيا توأما يكمل بعضه بعضا، كلاهما يأخذ من الآخر، ويعطيه ليكوّنا في النهاية نظرة شمولية لمعنى الحياة "[40]. ولدلالة النص ولمقصدية القارئ الذي لا يستطيع أن يدققه أو يحدّه بحدود معينة، وإنما يبقى مفتوحا يحتمل قراءات مختلفة ومتباينة من طرف المتلقي الذي يكشف عن الجمالية الشعرية التي ترتكز على حسن انتقاء الكلمة؛ هذه "الكلمة في التجربة الجمالية إشارة حرة تم تحريرها على أيدي المبدع الذي يطلق عتاقها و يرسلها صوب المتلقي، لا ليقيدها المتلقي مرة أخرى بتحور مجتلب من بطون المعاجم، وإنما للتفاعل معها، بفتح أبواب خياله لها لتحدث في نفسه أثرها الجمالي، وهذا هو هدف النص الأدبي، وعلى هذا تصبح قيمة النص فيما تحدثه إشاراته من أثر في نفس المتلقي"[41]. وبالتالي فللمكان تأثير دلالي على نفسية الشاعر والمتلقي .

خاتمة : خلصت الدراسة إلى أن المكان في النص الشعري الجزائري المعاصر تجسد في عدة أبعاد مختلفة؛ منها النفسية، والاجتماعية، والوطنية، والتاريخية، فحاول الشاعر عثمان لوصيف التفاعل معه من خلال رؤيته الخاصة به، لأن المكان لا يمكن أن تكون له جمالية بعيدا عن سياقاته التاريخية والاجتماعية والدينية.

والقدرة على إبراز تلك الدلالات أمر في غاية الأهمية للتعرف على الشاعر وما يكتبه. بغية الكشف عن علاقة المكان بمختلف العناصر الشعرية في النص.

وقد جعل الشاعر عثمان لوصيف الأماكن الحميمية المحببة لديه كركيزة أساسية تصله بماضيه وذكرياته، حيث يحتفي به احتفاءً كبيرا يعكس مدى صدقه وشوقه وحنينه إليه.

الهوامش:

[1] مونسي حبيب :المكان في الشعر العربي دراسة فنية وصفية ،منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2000، ص 7.

[2] الديلمي سمير علي :المكان في النص المسرحي ، دار الكندي للنشر والتوزيع ، إربد ، الأردن ، 1998،ص 126.

[3] عبد القادر الرباعي : الصورة الفنية في النقد الشعري في النظرية والتطبيق ، مكتبة الكتاني للنشر والتوزيع ، عمان ،الأردن ، 1995، ص 193.

[4] الديلمي سمير علي : المكان في النص المسرحي ، ص 20.

[5] عبد القادر الرباعي : الصورة الفنية في النقد الشعري ، ص 212.

[6] النصير ياسين :إشكالية المكان في النص الأدبي ، دراسات نقدية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986، ص 8.

[7] ابن منظور : لسان العرب ،صححه :أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي ،دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1966، ج 2، مادة (ج م ل).

[8] سيد صادق عبد الفتاح :الجمال كما يراه الفلاسفة و الأدباء،دار الهدى للنشر و التوزيع، ط1، مصر ، 1994، ص11.

[9] ينظر:منذر عياشي : الأسلوبية وتحليل الخطاب ،مركز الإنماء العربي، ط1، سوريا، 2002، ص 60- 67.

[10] عز الدين المناصرة : شهادة في شعرية الأمكنة ،مجلة التبيين ،الجاحظية ،العدد 1، شتاء 1990، ص 37.

[11] مراد عبد الرحمن مبروك: جماليات التشكيل المكاني في ديوان "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة" لأمل دنقل، دراسة نصية، علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، ج34 ، مج9 ، ديسمبر1999، ص380.

[12] اعتدال عثمان: إضاءة النص ، دار الحداثة، بيروت،1988 ، ص.5

[13] عز الدين مناصرة :جمرة النص ، ص 326.

[14] المدينة في الشعر العربي المعاصر، الجزائر نموذجا،1962 - 1925 ، د .إبراهيم رماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة،1997 ، ص .8

[15] عثمان لصيف : الإرهاصات . دار هومة، ط1، الجزائر،1997 ، ص95.

[16] أحمد درويش :في نقد الشعر (الكلمة و المجهر)، دار الشروق ،ط1، مصر ، 1996 ،ص84 .

[17] عثمان لوصيف :شبق الياسمين، م و ك ،ط1، الجزائر، 1982،ص 90.

[18] عثمان لوصيف : الكتابة بالنار.م و ك ،ط1، الجزائر،1982، ص30

[19] عثمان لوصيف :زنجبيل. دار هومة، ط1، الجزائر، 1999، ص 8.

[20] ياسين النصير : إشكالية المكان في النص الأدبي . دار الشؤون الثقافية، ط1 ، بغداد ،1986 ، ص8.

[21] عثمان لوصيف : اللؤلؤة. ص42

[22] عثمان لوصيف : اللؤلؤة. ص 65.

[23] عبد الجليل منقور : المقاربة السيميائية للنص الأدبي ،كتاب السيمياء و النص ،جامعة بسكرة ،نوفمبر 2000،ص 69.

[24] صلاح صالح: الصحراء في الرواية العربية .رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة دمشق، 1991 ،ص78

[25] عثمان لوصيف : براءة. ص54

[26] عثمان لوصيف : لؤلؤة . ص71

[27] عثمان لوصيف : الإرهاصات . ص69

[28] عثمان لوصيف: جرس لسماوات تحت الماء متبوعة بـ: يا هذه الأنثى، جمعية البيت للثقافة والفنون، 2008، ص 95.

[29] عثمان لوصيف: جرس لسماوات تحت الماء متبوعة بـ: يا هذه الأنثى، ص 137.

[30] عثمان لوصيف : براءة . دار هومة،ط1، الجزائر ،1997 ،ص41 .

[31] قادة عقاق : دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر ، اتحاد الكتاب العرب ،ط1، سوريا ،2001، ص85.

[32] غاستون باشلار:جماليات المكان، ترجمة :غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، ط5، بيروت،2000 ،ص06.

[33] عثمان لوصيف: ديوان لؤلؤة، ص 54.

[34] عثمان لوصيف: ديوان لؤلؤة، ص 50.

[35] حبيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي المعاصر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2001، ص 72.

[36] عثمان لوصيف: ديوان لؤلؤة، ص 52.

[37] التناص والتلقي، ماجد الجعافرة، ص105، نقلاً عن "أسلوب التكرار بين تنظير البلاغيين و إبداع الشعراء "، شفيع السيد، مجلة "إبداع"، العدد السادس، السنة الثانية، يونيو .1984

[38] دراسات في الشعر والمسرح اليمني : محمد محمود رحومة، دار الكلمة، ط1، صنعاء،2003 ، ص 48.

[39] دينامية النص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء،1990، ص 69.

[40] أسماء شاهين :جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا ،المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، ط1، بيروت، 2001،ص 19.

[41] عبد الله الغذامي :التشريحية ، دار الطليعة، ط1 ،لبنان ، 1987، ص12.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊